

محمد صلى الله عليه وسلم رائد الحفاظ على البيئة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه , واشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له العزيز الجبار
الرازق الوهاب , البارئ الخالق جل جلاله , واشهد أن محمدا رسول الله عبده ورسوله صفيه من خلقه وحببيه
الذي بلغ الرسالة وادى الامانة ونصح الامة وكشف الغمة ودعل البشرية الى الدين القويم: ما فرطنا في
الكتاب من شيء افلح وفاز من تمسك بكتاب الله وسنته الشريفة.

أما بعد:

فيا أيها الإخوة المؤمنون المسلمون:

جاء في الحديث النبوى: ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرضا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان
له به صدقة.

الواقع أن القول بأن محمدا رائد من رواد الحفاظ على البيئة سوف يقع في آذان الكثيرين في البداية موقعا
غريبا، إذ لا شك أن مصطلح "الحفاظ على البيئة" وما يرتبط به من مفاهيم مثل "البيئة" و"الوعي البيئي"
و"ترشيد الاستهلاك" هي ألفاظ من اختراع العصر الحديث، أي مصطلحات صيغت لتواجه الاهتمامات
المتزايدة بالوضع الراهن لعالم الطبيعة من حولنا.

ومع ذلك فإن قراءة الأحاديث النبوية عن قرب، أي تلك الروايات المتعلقة بالأحداث الهامة في حياة محمد،
لترينا أنه كان واحدا من أشد المنادين بحماية البيئة. بل إن بمستطاعنا القول إنه كان في نصرته للبيئة سابقا
لعصره، أي رائدا في مجال المحافظة على البيئة والتطور الرشيد والإدارة الحكيمة للموارد الطبيعية، وواحدا
من الذين يسعون لإقامة توازن متناسق بين الإنسان والطبيعة. وبالأستناد إلى ما أوردته لنا الأحاديث من
أعماله وأقواله يمكننا القول بأن محمدا كان يتمتع باحترام عميق لعالم النباتات والأزهار وأنه كان على صلة
حميمة بعناصر الطبيعة الأربعة: التراب والماء والنار والهواء.

لقد كان محمد من الدعاة الأقوياء للاستخدام الرشيد للأرض والماء واستثمارهما، وكذلك المعاملة الكريمة
للحيوانات والنباتات والطيور، والحقوق المتساوية لمن يتعاملون معها من البشر. وفي هذا السياق فإن حداثة
رؤيته للبيئة وحداثة المفاهيم التي جاء بها في هذا المجال لما يشده العقل شدها، حتى لتبدو بعض أحاديثه
وكانها مناقشات عصرية حول قضايا البيئة.

المبادئ الثلاثة

إن فلسفة سيدنا محمد البيئية هي أولا وقبل كل شيء فلسفة شاملة مترابطة، إذ تقوم على أن هناك صلة
أساسية وارتباطا متبادلا بين عناصر الطبيعة، كما أن نقطة انطلاقها هي الإيمان بأنه إذا أساء الإنسان استخدام
عنصر من عناصر الطبيعة أو استنزفه استنزافا فإن العالم الطبيعي برُمته سوف يضارَ أضرارا مباشرة. على
أن هذا الاعتقاد لا يُنصّ عليه في حديث واحد نصا مباشرا، بل يمثل بالأحرى المبدأ الذي تنهض عليه جميع
أقوال محمد وأفعاله. إنه فلسفة حياته التي على ضوئها نستطيع أن نبصر ملامح شخصيته.

إن أهم ثلاثة مبادئ في الفلسفة المحمدية المتعلقة بالطبيعة تقوم على تعاليم القرآن ومفاهيم الوحدانية وخلافة البشر والثقة في الإنسان. ويمثل التوحيد حجر الزاوية في دعوة الإسلام، وهذا التوحيد يراعى الحقيقة التي تقول بوجود خالق واحد للكون وأن الإنسان مسئول أمامه عن أعماله: **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** [المائدة 120].

ويقر سيدنا محمد بأن علم الله وقدرته يشملان كل شيء، ومن ثم كانت الإساءة إلى أي مخلوق من مخلوقاته، سواء كان كائنا حيا أو مصدرا من مصادر الطبيعة، ذنباً من الذنوب يجازى الإنسان عليه. وفي اعتقاده أن جميع مخلوقات الله متساوية أمامه سبحانه، وأن الحيوانات، وكذلك الأرض والغابات وينابيع المياه، ينبغي أن يكون لها حقوق تُحترم.

أما مفهوم الخلافة البشرية في الأرض والثقة في الإنسان فينبعان من مبدأ الوحدانية. ويوضح القرآن أن الإنسان يتمتع بوضع متميز بين مخلوقات الله على الأرض، إذ اصطفاه ليكون خليفة فيها وينهض بمسؤولية العناية بغيره من مخلوقات هذا الكوكب. وهذا واجب كل فرد فينا ووجه تميزه، ومجلى الثقة به. ورغم هذا نرى القرآن مرارا وتكرارا ينهى الإنسان عن الكبر منبها إياه إلى أنه ليس أفضل من سائر المخلوقات: **"وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ"** [الأنعام 38].

وكان سيدنا محمد e يؤمن بأن الكون بما فيه من مخلوقات: حيوانات كانت هذه المخلوقات أو نباتات أو مياهًا أو أرضين، لم تُخلق لتكون للبشر. صحيح أن لهم الحق في استخدام موارد الطبيعة، إلا أنهم لا يمكنهم أن يملكوها تملكاً. ومن هنا ففي الوقت الذي يسمح للإسلام للإنسان بحيازة الأرض نراه يضع حدوداً لذلك: فعلى سبيل المثال يمكنه أن يحوز الأرض فقط طالما كان يستعملها، لكنه ما إن يكف عن هذا الاستعمال حتى يصبح واجبا عليه التخلي عن هذه الحيازة.

ويعترف سيدنا محمد e بمسؤولية الإنسان أمام ربه، بيد أنه كان دائما وأبدا يدعو إلى التواضع، ومن ثم نراه يقول: **"إن قامت على أهدم القيامة وفي يده فسلة فليغرسها"**، فهو هنا يبين أنه، حتى عند انتفاء كل أمل لدى للبشر، على الفرد أن يحافظ على نمو الطبيعة. لقد كان مؤمنا بأن الطبيعة حسنة في ذاتها حتى لو لم يستفد البشر منها.

وبالمثل نراه يحض أتباعه على التشارك في موارد الطبيعة، إذ يخاطبهم قائلا: **"المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلا والنار"**. كما يعد حرمان العطشان من الماء إثما يعاقب عليه: **"من منع فضل مائه أو فضل كئله منعه الله فضله يوم القيامة"**.

والواقع أن موقف محمد تجاه الاستعمال الرشيد للأرض والمحافظة على الماء والطريقة التي كان يعامل بها الحيوانات هو دليل آخر على التواضع الذي يصيب فلسفته حول البيئة.

يقول سيدنا محمد "جُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً". في هذا الحديث يؤكد الطبيعة المقدسة للأرض أو التربة، لا بوصفها ذاتا طاهرة فحسب، بل بوصفها مادة مُطَهَّرَة كذلك. ويظَهَر أيضا هذا الاحترام للأرض في شعيرة التيمم التي تجيز للمسلم استعمال التراب في الطهارة الواجبة عند الصلاة في حالة فقدان الماء.

وينظر سيدنا محمد إلى الأرض على أنها مسخرة للإنسان، لكن لا ينبغي له مع ذلك أن يفرط في استخدامها أو يسيء استعمالها، كما أن لها ذات الحقوق التي للأشجار والحيوانات البرية التي تعيش فوقها. ومن أجل المحافظة على الأرض والغابات والحيوانات البرية جعل محمد عددا من المحميات، أي الأماكن التي يحرم فيها استعمال الموارد الطبيعية، وهو ما لا يزال معروفا إلى اليوم، إذ هناك مناطق ممنوعة حول بعض الآبار وعيون الماء غايتها حماية المياه الجوفية من الاستهلاك المفرط والنفاد. ومنها المناطق الخاصة بالحيوانات البرية والغابات حيث يُمنَع الرعي وقطع الأشجار أو يحرم التعرض لأنواع معينة من الحيوانات.

ولم يشجع سيدنا محمد فقط الاستعمال الرشيد للأرض، بل لفت أنظار أتباعه أيضا إلى المكاسب التي يجنيها الإنسان من إحياء الأرض البور، إذ جعل زرع شجرة أو غرس بذرة أو سقى أرض عطشى من أعمال البر والإحسان: "من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر". وعلى هذا فأیما شخص ساق الماء إلى قطعة أرض قاحلة فهي له.

نقول إنه من المستحيل إيفاء المدى الذي بلغته اهتمام سيدنا محمد e البيئية، وكذلك الأهمية التي تستأهلها، حَقْمَا في هذه المقالة القصيرة، فرويته الشاملة للطبيعة وفهمه لمكان الإنسان داخل العالم الطبيعي هما رؤية وفهم رائدان في مجال الوعي البيئي لدى المسلمين.

وللأسف فإن الانسجام الذي دعا إليه سيدنا محمد e بين الإنسان وبيئته قد تم تجاهله في أيامنا هذه إلى حد بعيد. وفي الوقت الذي نواجه فيه آثار التلوث والإسراف في استخدام موارد الطبيعة والتصحير وشح الماء في بعض الأماكن في العالم مع المعاناة من الفيضانات والعواصف في غيرها من الأماكن ربما يكون من الملائم بالنسبة لنا جميعا: مسلمين ونصارى ويهودا وهندوسا وبوذيين وملاحدة أن نأخذ ورقة من كتاب محمد ونواجه الأزمة البيئية الحالية بجدٍّ وحكمة.

الخطبة الثانية

بماذا تفسد البيئة وتتلوث؟

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه , واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له العزيز الجبار الرازق الوهاب , الباري الخالق جل جلاله , واشهد ان محمدا رسول الله عبده ورسوله صفيه من خلقه وحببيه الذي بلغ الرسالة وادى الامانة ونصح الامة وكشف الغمة ودعل البشرية الى الدين القويم: **ما فرطنا في الكتاب من شيء**. افلح وفاز من تمسك بكتاب الله وسنته الشريفة.

البحث عن الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى فساد البيئة وتلويثها واختلال توازنها , وانقلابها نقمة على الإنسان , بعد ان كانت نعمة له, ورحمة به.

والنظرة الإسلامية هنا واضحة تمام الوضوح، وهي: ان تصرفات الإنسان المنحرفة هي السبب الأول وراء ذلك.

وفي هذا يقول الله تعالى: ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون [الروم 41].

والفساد المذكور في هذه الآية الكريمة لا يراد به الفساد المعنوي من المعاصي والمنكرات وعمل السيئات، فان هذا هو سبب الفساد، المذكور في قوله تعالى في الآية: بما كسبت أيدي الناس. فالفساد هنا هو النتيجة والثمرة المرة لما كسبت ايدي الناس من المعاصي والمفاسد الأخلاقية. ولهذا فسروا الفساد في البر والبحر - كما في روح المعاني للآلوسي بالجذب والموتان وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين، ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة، وكثرة المضار.

وقال الطاهر بن عاشور في تفسيره:

وفساد البر يكون بفقدان منافعه وحدود مضارة، مثل حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ، وفي موتان الحيوان الا لمنتفع به ، وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى ارضين أخرى ، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض.

وفساد البحر كذلك يظهر في التعطيل منافعه من قلة الحيتان واللؤلؤ والمرجان (فقد كانا أعظم موارد بلاد العرب) وكثرة الزوابع الحائلة عن الاسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يسقي الناس.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ {204} وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ [البقرة 205].
ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الروم 41].

أولا تغيير خلق الله

ومن أعظم ما يفسد البيئة ويخرجها عن طبيعتها الهيئة لصالح الإنسان: ما عبر عنه القرآن ابلغ التعبير، وهو تغيير خلق الله أو بتعبير آخر: تغيير الفطرة التي فطر الله الناس، وفطر الاشياء عليها. وهو ما توعد به الشيطان اللعين أن يفسد به بني ادم ويضلهم عن طريقه حين قال: ولاضلنهم ولا منينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الإنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا م دون الله فقد خسر خسرانا مبينا [النساء 119].

إذا خرج الإنسان عن فطرة الله تعالى بنفسه، وفطرة الله الأشياء المخلوقة من حوله، فسيضيع ويشقى، ويجد سنن الله تعالى في الكون وفي الإنسان ضده.

وهكذا كل من خرج على الفطرة عاقبته الفطرة نفسها , وعاقبة القدر الأعلى أيضاً , ويبقى عقاب الله تعالى المرتقب في الآخرة, ولعذاب الآخرة أشد وأخرى.

- إن الذي حول الإنسان من بشر مكرم إلى اله صماء , قد غير فطره الله, وغير خلق الله سبحانه.
- الذي حول الإنسان إلى سبع مفترس, أو إلى حيوان شره لا هم له إلا بطنه وشهوته, قد غير فطره الله, وغير خلق الله.
- والذي حول الإنسان المنتج المكلف بعماء الأرض , إلى مجرد مستهلك , ومستهلك بإسراف , قد غير فطره الله , وغير خلق الله .
- والذي حول الماء الذي انزله الله من السماء ماء طهوراً إلى ماء ملوث بمخلفات المصانع وغيرها, قد غير فطره الله, وغير خلق الله.
- والذي حول النبات الطبيعي النافع إلى نبات ضار بواسطة كيماويات قد غير فطره وغير خلق الله
- والي حول الهواء الذي صرفه الله بين السماء والأرض, والذي خلقه الله نافعاً لناس , إلى هواء ملوث بآثار ما صنع الإنسان وتجاوز فيه , قد غير فطرة الله, وغير خلق الله.
- والذي حول البقرة ويبره من الأنعام من حيوا أكل للشعب إلى حيوان يطعم البروتينات الحيوانية المصنعة, حتى أدى إلى جنون البقر وغيره قد غير فطرة الله, وغير خلق الله.
- والذي غير التربة التي خلقها الله صالحة للنبات وللسكنى إلى تربة ملوثة قد غير فطرة الله, وغير خلق الله.
- والذي غير طبيعة الأرض كلها, التي جعلها الله لأهلها مهادا وفراشا وبساطاً ومستقراً, إلى أرض مهددة بالاضطراب والدمار من كل جانب قد غير فطرة الله, وغير خلق الله.
- والذي أجرى التجارب النووية في باطن الأرض ولوث ظاهرها بالنفائات الذرية والإشعاعات الضارة, وقد غير فطرة الله وغير خلق الله .

وما أكثر ما افسد الإنسان حينما استجاب لنداء الشيطان وأمره للناس يغيروا خلق الله, فأطاعوه, فخرسوا خسرانا مبينا.

ثانياً: الظلم

وما أعظم ما يؤدي إلى فساد البر والبحر أو فساد البيئة : الظلم. سواء أكان اظلم الإنسان لنفسه, أم اظلم الإنسان لأخيه الإنسان, أم ظلم الإنسان البيئة وعناصرها ومكوناتها المختلفة من الحيوانات والنباتات والجمادات من التربة والماء والهواء وغيرها.

وإذا كان العدل والإحسان مطلوبين من الإنسان أبداً في التعامل مع البيئة باعتبارهما مما أمر الله تعالى به وفرضه على عبادة: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى [النحل 91].

فإن الظلم والإساءة مما حرمه الله تعالى على عباده, في التعامل مع عناصر البيئة, كما في التعامل مع الإنسان والظلم من الذنوب التي يجعل الله العقوبة عليها في الدنيا قبل الآخرة, حتى لا يتمادى الظالمون في ظلمهم, وخصوصاً ظلم المستضعفين من الناس, الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ولا يجدون ن يساندهم أو يدافع عنهم , هنا يتكفل القدر الأعلى بالثأر لهم والدفاع عنهم.

اقرأ معي قوله الله تعالى: تلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا [الكهف 59]. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون [النمل 52].

كمثل الريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون [آل عمران 117].

ثالثا: العلو في الأرض

ومن أسباب فساد البحر والبر: علو الإنسان في الأرض: أي طغيانه واستكباره بغير حق، وتجاوز حده، كما تمثل ذلك في فرعون، الذي قال فيه القرآن: إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين [القصص 4] وأي فساد أعظم من تذييح الذكور، واستحياء الإناث. فهو يريد أن يقضي على هذه السلسلة، وسبب ذلك استضعافها والاستهانة بأمرها. واستعلاؤه عليها، ولذا قال تعال عنه في سورة أخرى: انه كان عاليا من المسرفين [الدخان 31].

ولا عجب أن أدى به هذا العلو إلى التآلة وادعاء الربوبية للناس: فحشر فنأدى، فقال أنا ربكم الأعلى [النازعات 23-24] وفي سياق آخر قال: يا أيها الملا ما علمت لكم من اله غيري [القصص 38]. إن هذا العلو المستكبر المتأله هو الذي انتهى بفرعون وملئه إلى الهلاك والدمار: ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون [الأعراف 137].

رابعا: إتباع الهوى

ومن أعظم ما يفسد في البيئة كذلك، ويجلب الفساد في البر والبحر والجو: إتباع الإنسان لهواه، وركضه وراء شهوته، وإشباع غرائزه الدنيا، على حساب المثل العليا، وخضوع الإنسان لنداء أنانيته وفرديته، ولو جار ذلك على حقوق غيره، وترجيحه لرغبات يومه، دون النقات إلى غدة. فهذا هو الذي ينزل على الإنسان من مخلوق راشد يجعل شهواته تحت سلطان عقله، الى مجرد حيوان تسييره غريزته، فلا عقل له، ولا ضمير له، في هذا يقول القرآن: والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم [محمد 12] وقال عز وجل: ارايت من اتخذ إلهه هواه افاننت تكون عليه وكيفا، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا [الفرقان 43, 44].

خامسا: الانحراف عن الميزان الكوني

من أسباب ظهور الفساد في البر والبحر:

انحراف الإنسان عن الميزان الكوني الذي أقام الله تعالى عليه هذا العالم، فقد خلق كل شيء بقدر، ووضع كل شيء فيه بحساب: وكل شيء عنده بمقدار [الرعد 8]. وأنزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الأرض [المؤمنون 18]. والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون [الحجر 19].

وآيات كثيرة دلت على أن كل شيء في هذا الكون الكبير مخلوق بمقدار وميزان, ومن أجلى الآيات وأظهرها دلالة على هذا المعنى آيات سورة الرحمن: الشمس والقمر بحسبان, والنجم والشجر يسجدان, والسماء رفعها ووضع الميزان, ألا تطغوا في الميزان, وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان [الرحمن 5-9]. فأشارت هذه الآيات إلى الميزان الكوني الذي قرنه الله برفع السماء, ولا يظن ظان أن هذا الميزان هو الذي توزن به الأشياء المشتراه من السوق فهذا يقرن بالكيل, ولا يقرن برفع السماء.

وأمرت الآيات بإقامة الوزن بالقسط, أي العدل, ونهت عن الطغيان في الميزان, وهو الإسراف والإفراط, كما نهت عن الإخسار في الميزان, وهو التقصير والتفريط. وموجب هذا هو الوقوف عند حد الوسط والاعتدال. وهو ما تميزت به هذه الأمة: وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة 143].

وان الفساد انما يحدث في الأرض بتجاوز العدل أو القسط والانحراف الى الطغيان أو الإخسار. وان الخير كل الخير في إقامة الوزن بالقسط في كل شيء, وهو ما بعث الله به رسله وانزل به كتبه, كما قال تعالى: لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط [الحديد 25].

سادسا: الكفر بأنعم الله

ومن أسباب فساد البيئة أو ظهور الفساد في البر والبحر: الكفران بأنعم الله تعالى . فقد أتى الله الإنسان نعما كثيرة هيأ له أسبابها, ووفر له مصادرها, ويسر له سبلها , وكلما كانت حاجته إلى هذه النعم اشد وأكثر, كان عطاؤه تعالى فيها أعظم وأوفر .

حتى إن أعلى النعم وأنفسها وأعظمها عند الإنسان هي أرخصها, بل هي في الغالب توفر له مجانا بلا مقابل, مثل الماء والهواء, والشمس والضياء. فان الله تعالى وفرها للعباد بكميات وافرة, تفي بمتطلبات الإنسان وحاجاته دون أن يحتكرها احد إلا ظالما كالذين يحتكرون الماء والطعام وهو في الأصل ملك للناس كافة.